

نعم نستطيع!

المسؤولية الاجتماعية والتغيير

د. أوسم وصفي

Copyrighted Material

Ophir Printers & Publishers



ophir

سلسلة ١٨٠ درجة- نعم تستطيع!- المسؤولية الاجتماعية والتغيير

الطبعة العربية الأولى ٢٠١١

حقوق الطبع محفوظة

Arabic Edition Copyright © 2011 by Ophir Printers and Publishers.

All rights reserved. No portion of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means – electronic, mechanical, photocopy, recording or any other – except for brief quotations in printed reviews, without prior permission of the publisher.

أوفير للطباعة والنشر

ص.ب. ٣٠٦٢، عمّان ١١١٨١، الأردن

هاتف: ٧٦٨ ٥٦٦٥ ٦ ٩٦٢+

فاكس: ٧٦٨ ٥٦٣٩ ٦ ٩٦٢+

Email: info@ophir.com.jo

www.ophir.com.jo

رقم الإيداع: ٢٠١١/٥/١٩٥٠

ISBN 978-90-5950-136-2

جميع الحقوق محفوظة، لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقلها، أو استنساخه بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي

مسبق من الناشر.

فهرس المحتويات

٦	الفصل الأول: نعم تستطيع!
١٦	الفصل الثاني: بيتُ أينا
٢٦	الفصل الثالث: العزلةُ ليستُ خيارًا
٣٨	الفصل الرابع: المسؤوليةُّ الاجتماعيَّة
٥٤	الفصل الخامس: الديمقراطيَّة
٧٠	خاتمة

Copyrighted Material
Ophir Printers & Publishers

ملاحظة:

القصص المذكورة في هذا الكتاب واقعية؛ لكن
الأسماء ونفاصيل القصص قد غيّرت حفاظاً على السريّة.

Copyrighted Material

Ophir Printers & Publishers

الفصل الأول

نعم نستطيع!

Copyrighted Material
Ophir Printers & Publishers



لا يمكنني أن أنسى منظرَ الشباب والأطفال الذين طالت بهم إجازةُ منتصف العام بعد ثورة الخامس والعشرين من يناير في مصر، فقد انتشروا في أرجاء البلدِ كلها من شمالها إلى

جنوبها يُنظفون الشوارعَ ويطلون الأرصفة. ذات مرة، وبينما كنتُ ماراً في أحد الشوارع، شعرتُ بتأثرٍ بالغٍ عندما رأيتُ طفلاً من هؤلاء يحملُ كيساً يجمعُ فيه التبرعات من سائقي السيارات لِشراء الطلاء وأدوات التنظيف. بلا شك، لا يعملُ هؤلاء الشباب في تنظيف الشوارع؛ فهم في الأصل طلبةُ مدارس وجامعات. وحالما انتهتِ الإجازةُ وأعادت تلك المؤسساتُ التعليميَّةُ فتحَ أبوابها، توقّفوا عن ذلك وعادوا إلى دورهم وممارسة حياتهم الطبيعيَّة. لكن بكلِّ تأكيدٍ حدثَ في حياتهم أمرٌ جديد. فقد تغيّرتُ نظرُتهم إلى أنفسهم وإلى بلدهم وإلى المجتمع الذي يعيشون فيه أيضاً.

أكتبُ هذا الكلام الآن وأنا جالسٌ إلى طاولة في مقهى يقعُ في الشارع الذي أسكنُ فيه. وبينما أنا مستغرقٌ في الكتابة، تنأى إلى سمعي هتافٌ لمجموعةٍ من الشباب. وعندما وصلوا إلى حيثُ كنتُ جالسا، اكتشفتُ بأنهم شبابٌ لا تزيدُ أعمارهم عن عشرين سنة يرفعون الأعلام وينادون: ”خبز، حريَّة، وحدة وطنيَّة“، ”مسلم مسيحي، يد واحدة“. لقد استشعرَ هؤلاء الشباب أنَّ ثورتهم تتعرَّضُ للخطرِ بفعلِ أحداث التوتُّر الطائفيِّ



التي تلت ثورة الخامس والعشرين من يناير. لذا فقد حَرَجُوا لِيلاً بعد عَوَدَتِهِمْ من المدارس والجامعات لِيَتَظَاهَرُوا وَيُلهِبُوا مشاعرَ الوطنيَّةِ لدى أبناء حِيَّهم ضدَّ آفةِ الطائفِيَّةِ. أَعترفُ بِأني الآنَ أَغالبُ دموعَ التأتُّرِ لِأَمْكَنَ من مواصلةِ الكتابةِ.

الامتلاك

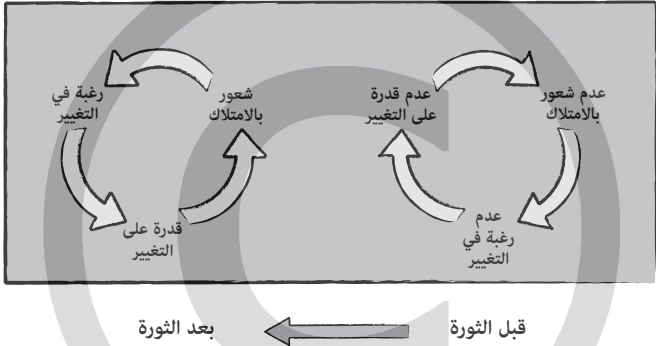
الحقيقةُ التي ينبغي أن تؤمن
بها أنت هي أنك تستطيع،
بل تحتاج لأن تُغيِّرَ ما حولك
ليكتمَلَ شعوركِ بالهُويَّةِ
الإنسانيَّةِ.

ما الذي حدث؟ ما الذي حوَّلَ هؤلاء الشباب إلى أشخاصٍ مُهتَمِّينَ بِنِظَافَةِ شوارعهم بعدَ أن كانوا يفعلون عكس ذلك؟ ما الذي فعلته هذه الثُورةُ الشعبيَّةُ بهم؟ لقد شعرَ المصريُّونَ

والتونسيُّونَ شعوراً عميقاً غيرَ مسبوقٍ بالامتلاكِ لبلادهم؛ لأنَّهم استطاعوا تغييرها. إنَّ ما تستطيعُ تغييره تشعرُ بامتلاكه. والعلامةُ الأساسيَّةُ لامتلاكك أيَّ شيءٍ هو أن تشعرَ بالحرِّيَّةِ، أو تكونَ قادراً على إجراء التَّغييرات التي تريدها في ذلك الشيء. إذا أهداك شخصٌ ما هديَّةً بِشَرطٍ ألا تُجرِي فيها أيَّ تغيير، فأنت لا تشعرُ بامتلاكها. إنَّ من أكثر الأمور التي تجعلنا غير مُقبِلين على الانخراط في مجتمعاتنا وتغييرها هو أننا لا نشعرُ بامتلاكها. ونحن لا نشعرُ بامتلاكها لأننا غيرُ قادرين على تغييرها، وهكذا تنشأ دائرةٌ مُفرَّغةٌ من السلبية

نعم نستطيع!

واللَّامبالاة في المجتمع. وثورة الشباب هي ما كسر هذه الدائرة المفرغة، ولم تكسرهما فقط، بل عكستها أيضاً صانعةً دائرةً جديدةً من الامتلاك والرغبة في التغيير.



الشكل رقم (1): ما قبل الثورة وبعدها

يبدأ الإصلاح (ولا أعني الإصلاح السياسي فقط، بل الإصلاح الفكري أيضاً) عندما نصدّق أنّ الشعور بَعْدَم القدرة على التغيير هو شعورٌ كاذبٌ يَفْرِضُهُ الآخرون علينا عندما يَقمَعوننا ويسيطرون علينا، كما نَفْرِضُهُ نحن على أنفسنا عندما نركنُ إلى السلبية والسكون. إنّ الإنسان بطبيعته كائنٌ مخلوقٌ لِيَسودَ ويتسلّطَ على بيئته ويغيّرَها. وإذا لم يفعل ذلك فهو عندئذٍ يعيشُ على مستوى أقلّ من طبيعته وفطرته، وأقلّ ممّا أرادَه الله له.



إنَّ عهدَ الخليقة (Creation Covenant) الذي قَطَعَهُ اللهُ مع الإنسانِ عندما خلقه هو أن يُخِضَعَ الأَرْضَ ويتسلَّطَ عليها (تكوين ١: ٢٨).

وعدمُ قُدرتِنا على التغيير هو وَهْمٌ كبيرٌ صنَعَهُ الكسلُ والخوفُ واحتقارُ البداياتِ البسيطة. فنقاطُ المطرِ الصغيرةُ تَكُونُ أنهارًا قادرةً على شقِّ بُطونِ الجبالِ، كما تُساهم في نشوء الحضارات على ضفافِها. ولعلَّ أروعَ ما اكتشفه الشعبانِ المصريُّ والتونسيُّ في ربيعِ العرب (٢٠١١م) هو أنَّ الفردَ الواحدَ الذي يَظُنُّ أَنَّهُ قَطْرَةٌ في محيطٍ، هو قادرٌ أن يشكِّلَ مع الآخرين طوفانًا يقفُ ضدَّ الظلمِ والاستبدادِ ويهزمه، وذلك عندما يُغامِرُ ويهزمُ كسله وخوفه ويُقرِّرُ أن يخرج. الحقيقةُ التي ينبغي أن تؤمن بها أنت هي أنَّك تستطيع أن تُغيِّرَ، بل تحتاجُ لأن تُغيِّرَ ما حولك ليكتمَلَ شعوركُ بالهُويَّةِ الإنسانيَّةِ.

”تَكْمُنُ في البذرةِ شجرةٌ كبيرةٌ جميلةٌ تنتظرُك لكي تزرعها فتُظِلُّ بيتك“.

”تَقِفُ الألوانُ منتظرةً إِيَّاكَ لكي تحوِّلها إلى لوحةٍ جميلةٍ تزيِّنُ بها جدارك“.

”القروشُ القليلةُ مُلقاةٌ في أدراجِكَ وأدراجِ زملائِكَ تنتظرُ مَنْ يجمعها ويوجِّهها لمساعدةِ الفقراءِ، أو للتبرُّع بها لعملِ اجتماعيٍّ كبيرٍ يُفيدُ الكثيرين“.

”ينتظرُك مئآتُ الأميين في القرى أو الأحياء الشعبيَّة المجاورة
لكي تُعلِّمهم القراءة والكتابة، ومن ثمَّ تنخفضُ نسبةُ الأميَّة
بين أبناء شعبك، فلا يستطيع أحدٌ أن يُضللَّهم أو يستغلَّهم“.

”يمكنُ لصوتك الانتخابيُّ مع أصواتِ آخرين أن يُغيِّر
الحكوماتِ ويرسمَ مستقبلَ بلدك“.

إنَّ كلَّ هذه الأشياء تبدو بسيطةً؛ لكنَّها عندما تجتمعُ معًا فهي تصنعُ
وتُغيِّر. وعندما تستطيعُ أن تُغيِّرَ ما حولك فأنت تشعرُ بامتلاكه، وعندما
تشعرُ بهذا الامتلاك يزدادُ حماسُك للتَّغيير.

يقظةُ الوعي الاجتماعي

قد تحدَّثُ خبراتُ توقُّفِ الوعي
الاجتماعيِّ لدينا، فنكتشفُ
الظلمَ الذي ترزُمُ تحت
وطأته فئاتٌ من المجتمع،
فنبدأُ في تفهُّمهم والشعور
بمعاناتهم، وربِّما تبنِّي
قضاياهم.

عادةً ما يكتسبُ الإنسانُ وجهةً
نظره من الثقافة المحيطة به. فإنَّ
كان من الطبقة الوُسطى، مثلاً،
فإنَّه يتبنَّى الآراء التي تحافظُ على
مصالح هذه الطبقة ومكتسباتها
دونَ أن يحاولَ وُضْعَ نفسه في
مكانِ طبقاتٍ أخرى من المجتمع.

لا يكونُ عادةً مثلُ هذا الإنسان شخصًا واعيًا لما يحدثُ من تهميشٍ
أو ظلْمٍ لبعض الفئات من المجتمع بسبب فروقٍ عرقيَّةٍ أو دينيَّةٍ أو



إعاقاتٍ أو حالاتٍ خاصّة، فلا يعارض أو حتّى يُناقش المفاهيم السائدة التي تتبنّاها الطبقة أو الجماعة التي ينتمي إليها. فإذا كانت هذه الجماعة تنظرُ نظرةً مُعيّنة إلى النساء أو الأطفال أو الفقراء أو الأقليات الدينية أو العرقية، فإنّه يتبنّاها دونَ حتّى أن يتساءلَ بينه وبين نفسه بشأنها، كما يرى أنّ كلّ ما عليه فعله هو أن يذهبَ إلى جامعته أو عمله ويدفعَ ضرائبه ويكونَ مواطناً صالحاً وكفى، لذا فهو لا يكونُ ناشطاً على الصعيد الاجتماعيّ.

قد يحدثُ شيءٌ ما يوقظُ وعيَ مثل هذا النوع من البشر، فيبدأ في التّساؤل والاستكشاف. فمثلاً قد يتعرّف بصورة عميقة إلى شخصٍ من هؤلاء الذين تبنّى نظرةً نمطيّةً لهم، أو يحدثُ له أو أمامَ ناظرَيْه موقفٌ يُظلم فيه شخصٌ أو يُعتدى عليه بسببِ انتماءاته. عندئذٍ يمكنُ أن يستيقظَ الوعيّ الاجتماعيّ لدى هذا الإنسان، ويبدأ في تبنّي وجهاتِ نظرٍ أخرى وربّما يتّسعُ وعيه الاجتماعيّ أكثرَ فيتبنّى قضايا فئاتٍ من المجتمع، ويصيرُ ناشطاً اجتماعياً. ومن الممكن أن يتّخذَ هذا النشاطُ صوراً متعدّدةً مثل النشاط الإعلاميّ الذي يهدفُ لأن يعرفَ بهذه المجموعة المظلومة وبقضاياها، وقد يحاولُ أن يعرضَ أمامَ مجتمعه قصصَ الظلم الذي وقعَ على هذه الفئة، وقد يكونُ النشاطُ حقوقياً يدفعُ إلى تغيير القوانين المتعلقة بهذه الفئة من خلال التأثير في البرلمانيّين من أعضاء المجالس التشريعيّة التي تُسنّ القوانين، أو قد يؤسّسُ جمعيّةً للعمل الاجتماعيّ يُقدّمُ من خلالها مساعداتٍ مباشرةً إلى هذه الفئة من الناس.

الانتماء

إذا كنتَ تمتلك ما تُغيِّره وتغيِّرُ ما تملكه، فأنتَ أيضاً تنتمي إلى ما تعرفه ولا تنتمي إلى ما تجهله، بل ربَّما تشعرُ تُجاه ما تجهل بالخوف أو الكراهية. إنَّ الانعزالَ عن المجتمع يجعلنا لا نشعرُ بالانتماء له؛ لأننا لا نعرفه ولا نعرفُ ما يدورُ فيه من أحداثٍ ومجريات. والخروجُ إلى الناس والتعرُّفُ إليهم هو أوَّلُ خطوةٍ نحو الانتماء. ربَّما تعيش أنت في طبقةٍ اجتماعيةٍ واقتصاديةٍ معيَّنة ولم يسبقُ قطُّ أن عشتَ بين أشخاصٍ ينتمون إلى طبقاتٍ أخرى، كما لم تُشاركهم حياتهم ولو لدقائقٍ معدودة. وقد تنتمي إلى أحد الأديان ولا تعرِّفُ أشخاصاً من أبناء وطنك ينتمون إلى دينٍ آخر. قد تكونُ من ساكني المدن ولم يسبقُ أن رأيتَ الريفَ ولم تعرِّش فيه ولو ليومٍ واحد، وهكذا تظُلُّ دائرةُ شعورك بالانتماء قاصرةً على مَنْ يعيشون معك في المدينة نفسها أو ربَّما الحيِّ ذاته. ربَّما لا تعرفُ ما يحدثُ في بلدك من أمورٍ سلبيةٍ كانت أم إيجابية، فلا تشعر بالرغبة في المشاركة في ما هو إيجابي، أو مقاومة ما هو سلبي. وربَّما لم تُشارك في المشاريع الخيرية التي أنجزت، أو في الجمعيات الخيرية التي تُساعد الناس؛ لأنك لا تعرف شيئاً عنها. وربَّما لم تسمعَ عن السلبيات التي قد تكون موجودةً في مجتمعك مثل عمالة الأطفال أو العنف ضدَّ النساء. وقد لا تعرفُ أنَّ مجموعاتٍ عرقيةٍ مثل البدو أو العَجَر أو غيرهم يُعانون الاضطهاد، أو ترتبطُ في أذهان العامة أفكارٌ خاطئةٌ عنهم. إنَّ هؤلاء يحتاجون إليك لتساعدهم وتغيِّرَ أوضاعهم في المجتمع. غير أنَّك قد تردُّ بالقول: ”وكيف أُغيِّرُ أنا وضعَ مجموعةٍ عرقيةٍ أو أقليةٍ دينية؟“ والحقيقةُ أنَّ الأمرَ صارَ الآن أسهلَّ



مِمَّا كَانَ فِي الْمَاضِي قَبْلَ ثَوْرَةِ الْإِعْلَامِ وَالْإِتِّصَالَاتِ. تَسْتَطِيعُ الْآنَ أَنْ تَكْتُبَ مَقَالَةً وَتُنَشِّرَهَا عَلَى أَحَدِ مَوَاقِعِ التَّوَاصُلِ الْاجْتِمَاعِيِّ، كَمَا تَسْتَطِيعُ مِثْلًا أَنْ تُصَوِّرَ فَلِمَا قَصِيرًا وَتُنَشِّرَهُ عَلَى الْإِنْتَرْنِتِ، وَتَسْتَطِيعُ أَيْضًا أَنْ تُنْظِمَ تَطَاهُرَةً تَلْفِئُ الْأَنْظَارَ إِلَى أَمْرِ سَلْبِيٍّ يَحْدُثُ، أَوْ أَنْ تُعْلَنَ عَنْ أَمْرٍ إِبْجَائِيٍّ. غَيْرَ أَنَّهُ قَبْلَ كُلِّ هَذَا، أَنْتِ تَحْتَاجُ لِأَنْ تَشْعُرَ بِالِانْتِمَاءِ، وَبِأَنَّ هَذِهِ الْأُمُورَ تَخْصُكَ أَنْتِ أَيْضًا وَلَا تَخْصُ أَصْحَابَهَا الْمُبَاشِرِينَ فَقَطْ.

التغيير

يلعب التأثير الاجتماعي أحياناً دوراً أقوى تأثيراً من القانون.

يحدث التغيير المجتمعي بأن تُقرَّر أن تكونَ جزءاً من أمرٍ ما. وعندما تُعْلَنُ عن ذلك، يتبعك آخرون. إنَّ الرِّشْوَةَ، وَالْإِهْمَالَ، وَالتَّزْوِيرَ، وَعَدَمَ

احترام قَوَاعِدِ الْمُرُورِ، وَإِلْقَاءَ الْمَخْلُفَاتِ، وَالْكِتَابَةَ عَلَى الْجِدْرَانِ بِقَصْدِ التَّخْرِيبِ، وَالتَّلْوِيثَ الضَّوْضَائِيَّ وَالْبَصْرِيَّ، وَعَدَمَ احْتِرَامِ الدَّوْرِ... إلخ- هي جميعها أمورٌ يُمْكِنُ أَنْ تُقَرَّرَ مَوْقِفُكَ بِشَأْنِهَا. فِي عَدَدِ الْيَوْمِ مِنْ صَحِيفَةِ "الْمِصْرِيُّ الْيَوْمَ"، كَتَبَ الرَّوَائِيُّ الْمَشْهُورُ عَلَاءُ الْأَسْوَائِي أَنَّهُ، فِي أَثْنَاءِ الثَّوْرَةِ، كَانَ مَوْجُودًا نَحْوَ السَّاعَةِ الثَّانِيَةِ بَعْدَ مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ فِي مِيدَانِ النَّحْرِيرِ [الَّذِي صَارَ رَمْزًا لِلثَّوْرَةِ الْمِصْرِيَّةِ]؛ وَإِذْ كَانَ يَشْعُرُ حِينَهَا بِالتَّوَتُّرِ أَشْعَلَ سِيَّجَارَةً وَأَلْقَى الْعَلْبَةَ الْفَارِغَةَ فِي الشَّارِعِ وَرَاحَ يَدْحَنُ شَارِدَ الدَّهْنِ. وَبَعْدَ

نعم نستطيع!

ثوانٍ، شعرَ بِيَدٍ تَرُبُّتُ كَتَفِهِ، فَالْتَفَتَ لِيَجِدَ سَيِّدَةً فِي نَحْوِ السَّبْعِينَ مِنْ عَمْرِهَا تُعْطِيهِ الْعَلْبَةَ الْفَارِغَةَ وَتَقُولُ لَهُ: ”نَرِيدُهَا مِنَ الْآنَ نَظِيفَةً“.

ترى هل سَيَسْتَطِيعُ عِلَاءُ الْأَسْوَانِي أَنْ يَلْقِيَ مَرَّةً أُخْرَى عِلْبَةَ سَجَائِرِ فَارِغَةً عَلَى الطَّرِيقِ؟ وَلِأَنَّهُ عِلَاءُ الْأَسْوَانِي فَقَدْ كَتَبَ هَذَا فِي صَحِيفَةٍ يَوْمِيَّةٍ قَرَأَهَا مَلَائِيْنُ النَّاسِ. تُرَى، كَمْ شَخْصًا مِنْ قُرَّاءِ الْأَسْوَانِي سَيَتَوَقَّفُونَ، بِسَبَبِ مَا فَعَلْتَهُ هَذِهِ السَّيِّدَةُ الْعَجُوزُ، عَنْ إِلقاءِ عُلْبِ السَجَائِرِ الْفَارِغَةَ عَلَى الطَّرِيقِ؟ وَكَمْ مِنْهُمْ سَيُحَاوِلُ أَنْ يُقْلِعَ عَنِ التَّدخينِ تَمَامًا؟ كَانَ مِنَ الْمُمْكِنِ أَنْ تَقُولَ هَذِهِ السَّيِّدَةُ الْعَجُوزُ لِنَفْسِهَا: عِلْبَةُ سَجَائِرِ فِي الطَّرِيقِ لَنْ تَضُرَّ أَحَدًا، وَلَنْ يُفِيدَ رَفْعُهَا كَثِيرًا. غَيْرَ أَنَّهَا لَمْ تَقُلْ هَذَا، وَكَمْ أَشْكُرُهَا لِأَنَّهَا لَمْ تَفْعَلْ ذَلِكَ.

بِلا شَكِّ، لَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَنْسِيَ دَوْرَ الْقَوَانِينِ وَتَطْبِيقِهَا فِي إِحْدَاثِ التَّغْيِيرِ، لَكِنَّ التَّأثيرَ الْاجْتِمَاعِيَّ يَلْعَبُ أحيانًا دَوْرًا أَقْوَى تَأثيرًا مِنَ الْقَانُونِ.

لَقَدْ تَرَبَّيْنَا عَلَى عِبَارَاتٍ سَلْبِيَّةٍ مِثْلَ: ”هَلْ أَنَا مِنَ سَيِّغِرِ الْمَجْتَمَعِ؟“ أَوْ عِبَارَاتٍ تَهْكُمُ مَمَّنْ يَعْترِضُ عَلَى شَيْءٍ مَا، فَنَقُولُ لَهُ مِثْلًا: ”هَلْ تَظُنُّ نَفْسَكَ مُصْلِحًا اجْتِمَاعِيًّا؟“ نَعَمْ! أَنْتَ وَغَيْرُكَ يُمْكِنُكُمْ أَنْ تَغَيِّرُوا الْمَجْتَمَعَ وَتُصْلِحُوهُ. نَعَمْ! إِذَا اسْتَيْقَظَ وَعَيْكَ الْمَجْتَمَعِيُّ وَمَا شعوركُ بِامْتِلاكِ هَذَا الْمَجْتَمَعَ وَبِالانْتِمَاءِ إِلَيْهِ وَإِلَى الْبَلَدِ الَّذِي تَعِيشُ فِيهِ، فَإِنَّكَ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَغَيِّرَها وَتَصْنَعَ مِنْها بَلَدًا أَفْضَلَ يَحْتَرِّمُ الْحَرِيَّةَ وَالْعَدَالَةَ وَحقوقَ الْإِنْسَانِ، وَيُوفِّرُ حَيَاةً أَكْرَمَ لِأَفْرَادِهِ.